فى سبيل الخير

قصص وصور من قريب لأماكن عاشـــت فى بـــر مصر مدعمة ببركة الله تعـــالى وبأفكار تدعو للخير والصلاح وتتذكر معنى التقوى ولدت فى شهر رمضان المبارك وتكاتف على تحقيقها المصريون والمتمصرون الذين اختاروا بر مصر المحروسة.

عطشان يا صبايا

كان إذا ما أهل هلال رمضان لا يعرف الناس السكون، ولو للحظة مـ
ليل أو نهار فى المساجد والكتاتيب.

فإذا كانت قباب المساجد ومآذنها وورع الناس والإخلاص فى الصلا
أشياء مفهومة فى هذا الشهر المبارك.

وإذا كانـت حركة التجارة والبيع والشـراء والرائـح والغادى هـ
تعبير عن نمط الحياة اليومية فى الأزقة والحارات الضيقة.

وإذا كانـت الكتاتيب هى فى الأصل أمكنـة مباركة لا ينقطع فيهـ
تعلم معانى سور القرآن الكريم وقواعد اللغة العربية لتحفيظهما لصغـ
المسـلمين... فإن الأسبلة كانت شيئا آخر بالنسبة لكل من سكن القاهرة
العتيقة.

ففى الإسـلام هناك قاعدة تقول «لاضرر ولاضرار».. وهناك تفسـيـ
مصرى حـول واحدة من خير الأعمال وهى بـر الناس واعتبر من الـ
سـقاية العامة والدواب على وجه التحديد فهى صدقة جارية حتى بـ
رحيل صاحبها.

فبقدرمن يسـتفيدون من السـبيل بقدر ما يكتب لصاحبه حسـنا
عند ربه.

وقبل أن ندخل فى تفاصيل كثيرة تهمنا يجب أن ننتبه إلى أن هناك مبدأ كان يحكم عصر الأسبلة والكتاتيب كانت تلتزم به شوارع القاهرة على طولها وعرضها.

طابــع يمكن أن نصفه بالرغبة فى التجويد والمنافســة من أجل بلوغ الأفضل.

فإذا نودى للصلاة سمعت أصوات المؤذنين تتنافس بين مآذن المساجد وقبابها ليحصلوا على بركة حلاوة الصوت وتجويد القرآن الكريم.

وعندما يدعو خليفة أو حاكم لبناء مســجد أو خان أو وكالة أو حتى منزل يتنافس البنــءون والصناع فيما بينهم لإخــراج أفضل ما عندهم لبلوغ درجة مشهودة من الرقى والجمال.

ولو حدث وقرر أحدهم أن ينفق شيئا فى سبيل الخير تنافس الناس فيما بينهم ولهذا ولدت هذه الأسبلة.

أما عن التاريخ الذى ولدت فيه هذه الأســبلة فقد أشار إليه أكثر من باحث ومؤرخ وكاتب ومحب للفنون الإســلامية الراقية ومن الأمثلة ما كتب فى موســوعة «مدينة القاهرة فى ألــف عام» للدكتور عبد الرحمن زكى الذى كتب يقول:

كان السبيل فى الأصل ملحقا بأحد أركان المسجد ليشرب الناس وفى أغلب الأحيان كان يعلوه مــكان لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ويعرف بالكتــاب ثم أصبحت هذه الأبنية فيما بعــد منفصلة كما هو الحال فى القاهرة.

وقد اهتم سلاطين المماليك وأمراؤهم بإنشاء أسبلة للناس وأحواض السقى للحيوانات فى مختلف مواضع المدينة. ويقوم بتسبيل الماء فى السبيل «المزملاتى» الذى يؤدى عمله فى الأوقات المحددة فى الأيام العادية وفى شهر رمضان. ولايزال بالقاهرة القليل من الأسبلة التى شيدها المماليك وفيها ثلاثة أسبلة شيدت قبل القرن السابع عشر. أما ما شيد من الأسبلة فى القرن السابع عشر فعددها ثلاثة وثلاثون، وعدد ما شيد منها فى القرن الثامن عشر فثلاثة وثلاثون أيضا. وفى القرن التاسع عشر شيد ثلاثة عشر سبيلا فقط. ومن المحتمل أن ما شيد منها فى أوائل القرن العشرين لا يزيد على أربعة.(١٣)

أما ولماذا شهدت هذه الأبنية هذه الطفرة فى التوسع والإنشاء فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وبدأت فى الاندثار فى القرن التاسع عشر حتى وصلت إلى أربعة أسبلة فقط فى بداية القرن العشرين؟ فإن الإجابة وبلا شك تتعلق بحركة الحياة فى بر مصر.

فقد ابتكرت الأسبلة وسادت فى زمن كانت السقاية فيه هى الأساس للحصول على مياه للشرب حتى إذا ما بدأت الحياة تختلف وأظهرت المدنية الحديثة قدراتها بعد عصر محمد على بدأت الأسبلة فى الانقراض وفتح الطريق أمام سبل أخرى للحصول على مياه نقية.

والأسبلة وبرغم أهميتها المعمارية والفنية، حيث إنها فى الأصل واحدة من حلقات العقد الفريد للعمارة الإسلامية الذى يضم الخانقاوات والخانات والأسواق والمدارس والبيمارستانات، التى لا تقبل الجدل

ولدت أيضا لتنفى ما أشيع من أن العمارة الإسلامية قد خلت من المبانى العامة كما يجادل وبقوة عالم الحضارة الكبير د/ ثروت عكاشة.

فالسبيل قد حل محل المسارح والملاعب التى كان يتنافس الموسرون اليونانيون والرومان فى الإنفاق عليها.

وبرغم أن هذه المقارنة تبدو ظالمة فى رأيى، حيث إن الثقافة المصرية قد نست المسارح والملاعب الرومانية باستثناء نماذج بسيطة مازالت موجودة فى شمال مصر وبخاصة فى الإسكندرية.

إلا أن فكرة الإنفاق مازالت هى المسيطرة وإن كان الإنفاق على سبل الخير هو الأساس فى القاهرة العتيقة.

وهكذا عاشت الأسبلة فى كنف المساجد والمدارس والخانقاوات حتى بلغت أشدها وأصبحت مبانى قائمة بذاتها ولا حاجة لها فى رعاية من مسجد أو مدرسة. بل إن المماليك قد جاءوا يؤكدون هذه الفكرة وأصبح من البر قصد السبيل فى حد ذاته. فذات السبيل التى كانت ومازالت طفلة فى بدايات العهد بالعمارة الإسلامية قد اكتنفها شىء من الزهو وأصبحت شابة تعيش بدعم المجتمع المصرى.

وبمرور الزمن لحق بها بناء لتحفيظ القرآن الكريم، وهو ما يعنى أن شكل الشوارع والحارات المصرية قد أعطت للأسبلة امتياز الاستمرار. فصحيح أن ضيق الشوارع وتقارب المنازل قد منحا الشوارع المصرية ميزة خاصة تجعل أى عابر سبيل يحتمى بالظلال الوفيرة.(١٤)

إلا أن وجود هذه الأسـبلة كان تعويضا آخر عن قيظ القاهرة الذى لم يكن يهدأ إلا فى بدايات الخريف وبداية أوان البلح الأسـود الذى يؤكد للمصريين أنه قد حان موعد انكسار الحرارة.

وقبل أن نقفز بالزمن بعيدا نعود مرة أخرى إلى شهر رمضان فى هذا الزمـن الجميل حيث تقص علينا الموسـوعة المصرية «تاريخ وآثار مصر الإسـلامية» كيف كانت تعمل الأسـبلة من وقت المغرب حتى السحور وكيف تمتعت بالإنفاق عليها.

أما الواقفون فكما تقول الموسـوعة فكثيرا ما اشـترطوا فى المزملاتى شروطا جسيمة كأن يكون سـالما من العاهات والأمراض وخاصة الجذام وأن يسهل الشرب على الناس وأن يعاملهم بالحسنى والرفق.

أما الأدوات المسـتخدمة فكانت حبالا مـن الكتان والليف والبخور وأباريق النحاس وقلل الفخار.(١٥)

وقد يتعجب البعض، فمصر بلد النيل الذى كان يملأ البلاد بالخير والخضرة فكيف يقسـو على القاهرة مدينة المعز الجميلة. ولكن الواقع يقول إن السـقاية كانت حرفة شـأنها شـأن كل الحـرف والصناعات الأخرى. وكان الماء فى هذا الزمن سلعة تباع وتشترى.

وكان من عادة السـقايين أن يحملـوا القرب على ظهورهم ويتجهوا إلى بيوت دون غيرها ليمدوها بالماء الذى كان يحفظ فى الأزيار والقلل، وكان هذا المشـهد هو أحد المشاهد الأساسـية فى حياة القاهرة العتيقة وحتى العصر الحديث. وهذا يعنى أن الماء لم يكن متوافرا للعامة ولهذا

أنشـئت الأسـبلة التى كانت عبارة عن صهاريج تحت الأرض أو أبيار تملأ بالماء حتى إذا ما نتهى عمرها جاء صاحب السبيل بغيرها.

والقاهـرة التاريخية كما يطلقون عليها اليـوم صاحبة أكبر نصيب من الأسبلة الشـهيرة والمهمة فى الوقت نفسه أمثال سبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا ونفيسـة البيضاء وسبيل قنصوة الغورى الذى كان ضمن مجموعته الشهيرة وسبيل وكتاب السلطان قايتباى وغيرها.

وهناك أيضا أسـبلة ربما لم تنل نفس الحظ من الشهرة وقد نتعجب عندما نتعرف إلى أسمائها مثل سبيل خليل أفندى المقاطمجى الذى شيد فى القرن السابع عشر وسبيل إسماعيل مغلوى الذى أنشئ أيضا فى نفس القرن وسبيل حسين الشعيبى الذى بنى فى أواخر القرن الثامن عشر.

ويمكننـا أن نتجول فى القاهرة التاريخية لنقابل أشـهر الأسـبلة وهو سـبيل أم عباس الـذى ولد عام ١٨٦٧م بشـارع الصليبة على يدى والـدة عباس ابن عم إسماعيل باشـا والتى تتميـز بخطوطها المعمارية والهندسية وسط الشارع الذى يضم الكثير من الآثار المهمة.

ويقع السبيل عند مفترق الطرق والأرض مكسوة بالرخام.أما الشبابيك فمن النحاس الأصفر وتنتشر الآيات القرآنية المكتوبة بالذهب. والسقف منقوش بالأصباغ الذهبية أيضا.

أما سـبيل ووكالة نفيسـة البيضاءالمرادية التى تشغل ناصية عطفة الحمام، وأنشـئت عام ١٧٩٦م أى فى نهاية القرن الثامن عشـر فيقال – والعهـدة على موسـوعة مدينـة القاهرة – إن هذا الأثر كان يشـغل

قيسارية القاضى الفاضل وكان يباع فى هذه الوكالة الشمع والمكسرات والقماش والسكر فعرفت السوق باسم السكرية.

ويتضح التأثير التركى فى الأسبلة وواجهة السبيل بها تشابيك نحاسية ونقوش وزخارف أسفل عقود دخلات التشابيك وهى محفورة فى الحجر.

والمعروف أن نفيسة كانت زوجة مراد بك آخر حكام مصر من المماليك الذى فر من أمام قوات الحملة الفرنسية وكانت من أفضل نساء المحروسة. ومع هذا لا يمكن اعتبار سبيل أم عباس ونفيسة البيضاء أشهر الأسبلة التى أوقفتها النساء فهناك أمثلة أخرى مثل سبيل عائشة هانم بدرب الجماميز التى أوقفت عليها أوقافا خاصة بها وحدها.

وأما سبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا الشهير الذى بنى عام ١٧٤٢م ويقع عند تقاطع شارع المعز مع شارع التمبكشية حيث مدخل السبيل تصفه موسوعة القاهرة بأنه كأثر له ثلاث وجهات بها ثلاث فتحات بمفردها من الرخام الملون وضع لها شبابيك نحاسية جميلة، ويعلو السبيل كتاب ذو مظلات وحواجز من الخشب نقشت عليه كتابات باسم المنشئ وتاريخ الإنشاء وبحجرة السبيل رسم للكعبة المشرفة.

وإذا كان سبيل الأمير عبد الرحمن جاويش مستحفظان ابن المرحوم حسن كتخدا قد حصل على كل هذه الشهرة فإن هناك سبيلين لا يمكن تجاوزهما وهما سبيل محمد على بالعقادين وسبيل محمد على بالنحاسين.

ويقع سبيل العقادين على رأس حارة الروم بالغورية وقد أنشئت عام ١٨٢٠م صدقة على روح ابنه طوسون وواجهته نصف دائرية ويتضح فيها التأثر بلفن الأوربى والواجهة مكسوة بالرخام الأبيض. أما الشبابيك فعددها خمسة ومصنوعة من النحاس المصبوب ويعلو كل شباك لوحة رخامية تعلوها زخارف وتغطى السبيل قمة من الخشب المغطى بألواح من الرصاص.

وفى القاهرة العثمانية بلغ عدد الأسبلة ما يزيد على الثمانية والستين سبيلا.

يعود الفضل في وجود هذه الأسبلة إلى حب الخير الذى لم يبرح أرض المصريين. كما أن حداثة العهد بالآثار العثمانية قد جعل الكثير من هذه الأسبلة مازال ينبض فيه نبض الحياة.

فبرغم أن الكثير منها قد تعرض للنيران بسبب حرق الأوراق والمهملات فيه وبرغم اتساع نفوذ المناطق السكنية على حساب المناطق الأثرية فى أحياء القاهرة فإن الجهود التى بذلها المصريون فى مراعاة هذه الأبنية التاريخية قد جعل الكثير منها يستمر برغم كل المضايقات والتوسعات التى تطرأ وتستحوذ على أجزاء من مساحاتها.

ويعتقد عالم الآثار محمد مصطفى نجيب فى بحثه عن «العمارة العثمانية» أن التكوين 'لمعمارى للسبيل فى القاهرة العثمانية لم يختلف كثيرا عن القاهرة المملوكية إذ يتكون من ثلاث طبقات الأولى الصهريج وهو فى باطن الأرض لتخزين المياه.

والطبقة الثانية أعلى من مستوى سطح الأرض بها المزملة ويتصدرها سلسبيل يقوم بتوزيع المياه على أحواض الشبابيك.

والطبقة الثالثة عملت كمدرسة أولية (كتاب) لتعليم الأولاد القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم.(١٦)

ومـــازال الكثير يمكـــن أن يروى عن الأســـبلة المصريـــة... فمازلنا عطشى، وعطشـــان يا صبايا دلونى على السبيل... كلمات كان المصريون يتغنون بها ولم يكن فى الأمر غموض فقد كانوا يقصدون أســـبلة بعينها عندمـــا كانوا يغنـــون فى الماضي البعيد، وبعدهـــا أصبحت هذه الأغنية الشـــعبية مصدرا لإلهام المصريين فى ثـــورة ١٩١٩م التى تعتبر من أهم ثـــورات مصر الحديثـــة التى كانـــت تبحث هى الأخرى عن «ســـبيل» الاستقلال بأرض مصر.

❑❑❑

حكاية وراء مدرسة

في أحياء القاهرة التاريخية.. لاتزال هناك أكثر من مدرسة هجرت فلـم يعـد بها طالب علـم أو مدرس أو حتى مـن يحمل أمنيات خاصة بحضـور درس داخل هذه الجدران العالية فإذا استوقفت أحد المارة وسألته لمن هذه الجدران لأجابك إنها لملك أو أمير اسمه بيبرس أو برقوق أوالسلطان حسن.

وإن كثيرا من الخلق كانوا يتعلمون بها فى الزمن الماضى، ولكنك إذا سألت عن سبب هجرانها والتزامها الصمت طوال هذه السنوات لن تجد إجابة... لأنها باختصار قصص تحتاج إلى قراءات خاصة.

فمنـذ رفـع الله تعالى قدر العلم فى أول سـورة نزلت على رسـوله ﷺ بأمر «اقرأ» والعلم حاجة شـديدة لكل مؤمـن. وقد وجد فى نهاية العصر العباسـى أن المدارس صارت ضرورة فأنشئت فى مدينة نيسابور الفارسية أول مدرسة.

فنظام الملك وزير السـلطان آلب أرسلان ومن بعده السلطان ملك شاه هو الذى اقتنع بفكرة وجود مدرسة وكان يقصد بها إرساء قواعد المذهب السنى فى مواجهة المذهب الشيعى.

ويقال إنه كانت هناك أربع مدارس فى نيسـابور فى عهد السلطان محمود الغزنوى.

وأما في مصر فقد ولدت على أيدى صلاح الدين الأيوبى -رحمه الله بقدر ما أنقذ الإسلام والمسلمين. وإن كان بعض العلماء قد أكدوا وجود مدرسة بالقاهرة وأخرى بالإسكندرية قبل هذا بزمن.

إلا أن صلاح الدين جاء بمدرستين أولاهما الناصرية بجوار جامع عمرو بن العاص وخصصت للمذهب الشافعى. والثانية القمحية وخصصت للمذهب المالكى بل وأوقف عليها أرضا بالفيوم يزرع فيها قمحا ومن بعدهما استكمل إنشاء مدارس أخرى.

ومن المعتقد أن الدولة الفاطمية احتفظت بالمسجد كمكان ومعهد للتعليم ولهذا كان للأزهر الشريف دوره كمركز للتعليم منذ سنوات أصعب من أن تعد.

فالفاطميون كانت لديهم طريقتهم الخاصة في التعامل مع العلم الذى كان غالبا ما ينصب على الدعوة ولهذا كان الأزهرالشريف هو خير من يحمل رسالتهم.

وبانتهاء الدولة الفاطمية كان عليه أن يترك مكانته لغيره حتى جاء السلطان المملوكى الظاهر بيبرس فأقر للأزهر مركزه الذى درست فيه الكثير من العلوم التى كانت ملء السمع والبصر وقتها مثل الطب والفقه والتوحيد. وهو ما يعنى أن الأزهرالشريف كمعهد علمى حصل على هذا الوضع مع مرور الزمن.

حكاية كل يوم:

أمـا عن نمط الحياة اليومية داخل هذه المدارس فقد كان يغلب عليه طابع الجدية. ويحكي د.سعيد عاشور في «تاريخ وآثار مصر الإسلامية» إنه كان يلحق بهذه المدارس مساكن للطلبة والمدرسين.

وكان يراعـى في تخطيطها وجود سـبيل ماء ومكتب لتعليم الأيتام السور المباركة للقرآن الكريم. وقد جرت العادة أن ينزل السلطان بنفسه من القلعة لافتتاح المدرسة. وهي مناسبة كانت تعطي الناس الفرصة في الحصول على اللحوم والفاكهة والحلوى وملء القدور بشـراب الليمون الذي كان غالبا ما تمتلئ به فسـقية المدرسـة وكأنهم في أحد أيام شهر رمضان الكريم.

وعلـى الرغم من طرافة هذا التعبير عـن الفرح والابتهاج فإن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد لأن السـلطان غالبا ما يعين للمدرسـة من يقوم بشئونها.

وأما الدروس فكانت تلقى على الطلبة وكانوا يتناقشون مع مدرسيهم فيما يلقى عليهم من علم.

وكان هنـاك المعيد الذي يعيد علـى أسماع الطلبة ما قيل في الدرس وكان يشـرح لهم بالإضافـة إلى هذا ما يصعب عليهـم فهمه. وقد ترك المجال مفتوحا أمام الطلبة ليختاروا ما يدرسون.

وقد ساعدهم على هذا وجود خزانة للكتب يقوم عليها خازن يقودهم للمعرفة الحقيقية.

واذا كان للخــازن مكانــة فما بالنا بمكانة المــدرس الذى كان يملك وضعــا خاصا وكان يحصل على راتب شــهرى إلى جانــب ما قرر له من طعام. وكذلك الأمر بالنســبة للطلبة وإن كان هناك اختلاف فى منح كل منهم نصيبه.(١٧)

وتبقى أغرب الحكايات وأجملها هى التى تتعلق بمدرســة السلطان حسن التى مازالت تحتل موقعها فى ميدان صلاح الدين تجاه القلعة.

أمــا جدرانها فهى أعلى جدر ن يمكن أن تجدها فى مدرســة. فهى كما وصفها د/ ثروت عكاشة فى «القيم الجمالية للعمارة الإسلامية» ذات قيمة فنية عالية. ولقد ســاد فى أوربا منذ عصر النهضة أن العمارة ذات القيمة الفنية العالية هى تلك التى تجمع بين الضخامة والاتساق والوحدة الزخرفية، وفى كثير من الأحيان تضاف إليها الرصانة والجلال.

ولا شك أن ضخامة البناء فى العمارة الإسلامية كانت عنصرا شائعا فيها. فجامع السلطان حسن ومدرسته يهول الناظر لفرطضخامته. حتى كان السلطان حسن نفســه يفاخر بأن إيوان مدرسته يفوق عقد «المدائن» ارتفاعا، مما يؤكد الانطباع لدى زائرها بأن ضخامتها لم تأت عفوا.

وتستمد مدرسة السلطان حســن جمالها من رافدين، بنيانها نفسه وما يحتويه من قيم معمارية، والمقياس الإنسانى.

إنهــا قطعة من الفــن المعمارى الجرئ يغنى تأملــه عن الإفاضة فى وصفه.ولعلــه أكمل أثر خلفته لنا مصر الإســلامية. وأجدر صرح يمكن مقارنته بآثار مصر الفرعونية من الدولة القديمة.

يقول عنــه المصور أوجين فرومتان: إنه درة من أنفس ما جادت به عصور الحضارة العظيمة من مبان، وما أشــبه قوله هذا بعبارة السلطان ســليم الأول الشــهيرة حين وقع بصــره على هذا الجانــب من الجامع الذى أقيمت عليه المدرســة فى مواجهة قلعة صلاح الدين المشــرفة على القاهرة: «لعمرى ما هذا البناء إلا قلعة منيعة».

وما أصدق جاستون فييت حين وقف فى نفس الموقع وأخذ يردد وهو ينقل البصر بين قلعة محمد على ومدرسة السلطان حسن: «إن من يتأمل البناءين تبدو القلعة فى عينه جاثمة تستعد للوثوب والانقضاض، على حين تبدو المدرســة هادئة ســامقة متعالية ترنو للقلعــة المتحدية فى شموخ الواثق دون مبالاة».

إننا لا نملك تجاه هذا الأثر الفريد إلا أن نحس أننا نحيا سيمفونية كاملة، اشترك فيها الأوركسترا بكافة عناصره فى عناية ودقة بالغتين. وبإحساس مرهف مدرك للفروق مهما دق شأنها.

فليســت هذه التحفة الموســيقية مجرد تآلف بــين عدد محدود من النغمــات أو ربط بين مجموعة محدودة من الألحان فحســب، بل إنها شيء يفوق ذلك كله، وبفضل جاذبية التوافق الهارمونى وسحر التوزيع الأوركسترالى يرتفع العمل ككل واحد إلى ذروة التعبير الفنى.

فقــد عرف المعمارى كيــف ينقل تأثيره إلى أعمــاق النفس بإخضاع العناصــر الزخرفية للمفهــوم المعمارى ككل بحيث تصبــح خادمة له ساعية بين يديه.(١٨)

والواقع إن هذه السيمفونية الجميلة كانت للسلطان حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون إن حياته نفسها لغزا. فقد تولى حكم مصر لفترتين أولاهما تزيد على الثلاث سنوات وثانيتهما تزيد على الست سنوات.

وفى عصره ازداد نفوذ المماليك الجراكسة فقرر أن يبنى هذه المدرسة على الرغم من الأوضاع السياسية القلقة ليتفوق إيوانها على إيوان كسرى. وليبرز الضخامة مع الرقة فى فن الحفر على الحجر وبراعة وتميز أعمال الرخام.

وتعتبر كسوة مداخل المدرسة الأربعة - كما تقول كتب العمارة - من الصحن وأعتاب الأبواب أكبر دليل على دقة أعمال النجارة الإسلامية حيث إن تطعيمها كان مجسما ومثلا رائعا لأجمل الأبواب المكسوة بالنحاس.

وقد روى عنها إنها لم تكن مجرد مدرسة عادية فقد لعبت أدوارا كثيرة، وخاصة إن الناس قد تعودوا فى عهد المماليك أن يصعدوا إلى المنارة ويرموا القلعة بالسهام. ولهذا قرر السلطان برقوق أن يهدم السلم المؤدى إلى المنارتين. فكان المؤذن يرفع الأذان من باب المدرسة حتى جاء من يصلح هذا السلم.

ومدرسة السلطان حسن كان ينظر إليها بشكل خاص على أنها تحفة لم يعرف المصريون مثلها. ففى تاريخ العمارة الإسلامية هناك أساطير تحكى عن مساجد وخانقاوات وأسبلة ومدارس ولكن لا يوجد أسطورة يمكن أن تحل محل هذه التحفة الرائعة.

فهذه المدرسة قد خلدت اسم مؤسسها برغم أن أعماله العسكرية وأسلوب حكمه لبر مصر لم يكونا ليرشحانه لهذه المكانة. فقد كان ممن تولوا الحكم صغارا حتى إنه لم يكن تجاوز الثالثة عشرة من العمر عندما وجد سدة الحكم تسعى إليه راغمة.

وبالطبع وجد إن هناك الكثير من الطيور الجارحة تنتظره على عتبات عرشه لتتقاسم معه حكم مصر. ويذكر التاريخ إن منهم يلبغا روس ومنجك اليوسفى وشيخو العمرى وأرغون شاه الإسماعيلى.

توليفة من كل صوب وحدب تجتمع تحت مظلة الحكم المملوكى الذى سمح لكل الأطراف المتنافرة والمتعددة الثقافات أن تجتمع كلها تحت راية حربية واحدة.

فكان على السلطان حسن - الذى عرف به بين المقربين باسم قمارى - أن يسمح بتداول السلطة بين هؤلاء المماليك وأن يمنح كل منهم قطعة من الفطيرة المصرية حتى اشتد عوده وذهب يبحث عن أكثرهم خطرا لقتله أو الإطاحة به حتى تستقر له البلاد.

إلا أن هذا الاستقرار وعلى عادة عصره لم يكن إلا استقرارا مؤقتا قطعه استيلاء الأمير طاز على العرش. والمثير فى الأمر أن السلطان حسن لم يكن على عادة من قبله إذا انسحب منه بساط السلطنة كره الدنيا وزهد فى كل شىء. وأصبح يفكر فى أن حياته وحياة من حوله ليست إلاجزءا من هذا العرش الذى فقده فى يوم وليلة، فعلى العكس من هذا، اتجه السلطان حسن فى سجنه إلى أن يقرأ ويكتب ويحصل

العلـم الذى جعل هذه الدنيا فى عينيه واسـعة حتـى ولو ضاقت عليه أبواب السـجان فانخرط فى سـلك العلم حتى أتاه جواب الأمير شيخو سريعا بعزل السلطان الجديد وإعادته إلى العرش.

ربما يعتقد من يقرأ أن ما حدث مجرد خطب طارئ إلا أن السـلطان حسـن كان فى حياته القصـيرة أبعد ما يكون عـن التوفيق فما لبث أن ثـار عليه بعض مماليكه المقربين الذين كان قد بدأ معهم رحلة الحكم. ومرة أخرى يوقع به أحد مماليكه وهو يلبغا ليختفى السـلطان وإن كان الاختفـاء هذه المـرة كان الثانى والأخير. فحتى فى تلـك الأيام كانت المعجزة تحدث مرة وبالتأكيد لا تحدث مرة أخرى.

وبرغـم هذا تعتبر هذه المدرسـة هـى الأفخم فـى التاريخ المصرى للإسـلام إن صح التعبير. فالوسـطية والاعتدال الدينى قد فتحا الباب لتدريـس المذاهـب الأربعة الشـافعية والحنفية والمالكيـة والحنبلية وبنفس درجة القبول بين المصريين.

وهناك معالم رئيسـية فى هذه المدرسة، وهى القبة الضريحية التى أراد السـلطان حسن برغم سنوات شـبابه البكر أن يعدها لتكون مثواه الأخير وكأنه كان يدرك أو يشعر بشكل لا يقبل الشك أن أيامه فى هذه الدنيا بأسـرها معدودة ولهذا أقام قبة ضريحية واضحة المعالم ومغسلا كان قد أسـس ليتناسـب مع الحياة المصرية. فكثيرا ما كان يهاجم وباء الطاعون الأراضى المصرية ويحصد أرواح المئات من أهل البلاد.

وبشـــهادة علماء الآثار توجد أربعة إيوانات للمدرسة. أولها إيوان القبلة من الناحية الجنوبية الشـرقية ويطل عليـــه بعقد نصف دائرى ضخـــم يعد أكـــبر عقد لإيوان فى العمارة الإســلامية قاطبـــة ويضم هذا الإيــوان أسمى آيــات الفن الإســلامى عامة. فجدرانه مغشـــاة بالرخام والأحجـــار الفاخرة الملونة وبدائرة إطار جصي به كتابات كوفية مورقة لسورة الفتح ويعد واحدا من أجمل ما أبدعته يد الفنان المسلم فى عمارة مصر الإسلامية.

وفى الجانبين الشمالى والجنوبى لجدار القبلة بابان مكفتان بالذهب الخالص يؤديان إلى القبة الضريحية.

أما الإيوانات الثلاثة الأخرى لهذه المدرسة فتجاور كل منها مدرسة من المدارس المذهبية المعروفة. فتجاور الإيوان الغربى مدرسة الحنابلة والإيوان الشـمالى مدرســـة المالكية وعلى جدرانها كتابات كوفية نصها بعد البسملة قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [سورة الحج آية: ٤١].

وتجاور الإيوان الجنوبى مدرســـة الحنفية وهـــى من أكبر مدارس المنشأة على الإطلاق. وتكون كل مدرسة من هذه المدارس وحدة معمارية كاملة ومستقلة تشـتمل على صحن تتوسطه فسقية، بالإضافة إلى إيوان وثلاثـــة طوابق تضم غرفا للطلبة والمدرســين، ويطل بعضها على صحن المدرسة وبعضها الآخر على الواجهات الخارجية.(١٩)

ولايتوقـف الكلام عند هذا الحـد، فالقبة الضريحية كانت أكثر ما تعرض للاضطهاد.

فقد كانت القبة أكثر ما تعرض لضرب المدافع والسهام المملوكية. فقد اتسـع زمن المماليك فى مصر حتى شـهد وجود السيف والرمح والسهم متزاملا مع المدافع الأحدث زمنا.

وبرغـم كل هذا التحامل والجفاء الذى تحمله هذا الأثر الفريد فإنه لم يعدم من يرأف بحاله.

وهكذا أصبحت هناك قبة جديدة برعاية حسـين أغا الخازندار وقد كتب عليها قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [سورة آل عمران آية: ١٩٣].

وتسـتمر مدرسة السلطان حسـن ثابتة برغم السـنوات والحروب وتغير الوجوه والحياة.

تسـتمر لتشـهد مرور الرحـلات الجوية التى تحلق فوق رأسـها ومواكب سيارات الأجرة والملاكى والأتوبيسات تدور حولها.

تسـتمر لتشـهد مع أهل البلد أياما حلوة وصعبة وتنجح برغم كل الظروف فى أن تحتفظ بلقب أفضل منشـأة إسلامية مملوكية تتفوق على إيوان كسرى، ولا أحد يعرف تحديدا لماذا عاشت مدرسة السلطان حسن كل هذا الزمن لتسمع فيها زغاريد الأفراح من جانب بعض البسطاء الذين يعيشون اليوم فى مصر المحروسة ولا يجدون مأوى لأفراحهم لقلة المال

والزواد، فيكتفوا بالاحتفال بعقد القران داخل هذا الصرح الضخم الذى لن يطالبهم بالأموال الطائلة التى تنفق من أجل ليلة واحدة هى ليلة العمر.

ولكن كيف كان كل هذا الفن الجميل؟ فهذا الفن منسـوب فى الأصل للسـلطان حسن الذى صعد إلى عرش مصر مرتين ولم يستطع خلال فترة تحكمه القصيرة والمتلئة بالقلاقل والاضطرابات أن تكون له بصمة تذكر.

فلـولا هذه المدرسـة لمـا تذكره النـاس. فقد نجحت ببسـاطة هذه القناديل والمشكاوات لمذهبة فى أن تسجل اسمه بماء الذهب.

إلا أن أكثر ما يحيرنى وأكثر ما يثير فضولى هى متابعة الآيات القرآنية التى كتبت على جدران هذا الأثر بالإضافة إلى غيره من الآثار الإسلامية. فلنولينك قبلة ترضاها... والذين إن مكناهم فى الأرض... لا إكراه فى الدين.

فمـن يقرأ هذه الأيـات المباركة يعلم أن نصيـب صاحب المكان تدل عليه هذه الآيات الكريمة.

فقد ولاه الله هذا المكان ليضم هذه المدرسـة صاحبة المذاهب الأربعة، ومكنه الله تعالى فى الأرض لتكون له منارة تحمل اسمه ويتذكره الناس برغم فوات فرصة الحكم ومرور السـنين ولأنه فى النهاية يعلم أنه لا إكـراه فى الدين وأن مجتمعه المصرى كان ومازال يسـمح بوجود الآخر دون ضرر ولا ضرار.

تنتهى قصة السـلطان حسـن التى تجعل الحـزن يطاردنى عندما أكتـب حكايتـه خاصة إننى أعلم أنه قد اختفى من سـاحة الحياة وهو دون الثلاثـين وإنه برغم هذا العمـر القصير ولد ليكون ملكا ولتكون له قصة فى هذه الحياة . . سبحان الله.

الخانقاوات
بيت الدعاء فى الزمن الجميل

يحكى

إنه فى زمن بعيد بعيد.. كانت الشوارع والطرقات فى بر مصر تسكن إذا ما سجى الليل فلا تكاد ترى من حولك إلا خيالا لظل يتحرك حول ضوء مصباح خافت أو حتى شمعة متواضعة لمن تتجافى جنوبهم عن المضاجع ويقضون ليلتهم فى الصلاة والدعاء.

ولكن الأذن تسمع قبل أن يرتفع صوت المؤذن فى الفجر صوت ذكر خافت فهناك أصوات جميلة تسبح الله تعالى هى الأخرى وتصدر عن مكان قريب من إحدى الخانقاوات.

أما... وماذا تكون هذه الخانقاوات؟ فهذه حكاية تعود بنا إلى زمن ذى النون المصرى وابن الفارض والصوفية والمتعبدين.

ففى كتاب د.سعاد ماهر «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» تعتقد الكاتبة أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسم أفاضلهم فى عصرهم بتسمية سوى صحابة الرسول ﷺ إذ لا فضيلة فوقها وقيل لمن أدرك أهل العصر الثانى سمى من صحب الصحابة بالتابعين، وانفرد أهل الصفة المراعون أنفسهم مع الله باسم التصوف واشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة.

وهنــاك رأى آخر حيث تنســب الصوفية إلى أهــل الصفة المنقطعين للعبادة والذين يصطفون فى نهاية مســجد الرسول ﷺ أما الرأى الثالث فيقــول إنه أخذ مــن كلمة الصفاء أو الصفاء الروحــى.. ويختلف الأمر فــى التفســير بين الناس كما تشــير الكتب إلا أن مــا نعتبره فى حكم المؤكد هو أن كلمة الصوفية والخانقاوات قد فسرها الجاحظ وابن بطوطة والمقريزى بأنها كلمة فارسية تعنى بيت العبادة والأكثر من هذا أن هذه الخانقــاوات ظهرت فى القرن الرابــع الهجرى ووصلت إلى قمة مجدها فى القرن السادس الهجرى.(٢٠)

وهناك أكثر من ســبب لظهور الصوفية فى هذا الزمن الذى اعتبرت من أهم مظاهره. ولهذا يكتب أحمد بهجت مفسرا ظاهرة التصوف التى انتشرت بين المسلمين فى كتابه: «بحار الحب عند الصوفية» فمن وجهة نظره يرى بهجت أن عصر الرســول ﷺ كان أشد العصور حبا لله تعالى فقد كانت نفس الرسول ﷺ صافية وكانت هناك أعباء نشر الدعوة وكان الجهاد هو رهبانية هذه الأمة الجديدة.

ومــرت أيام الله تعالى وانتقل الرســول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وحكم المسلمين بعده أبو بكر الصديق اللين الدمث الذى تحول إلى سيف صارم، حين بدأت مأســاة الردة، ثم تلاه عمر بن الخطاب الرجل الشديد الذى تحــول إلى رقة الحليم وحكم حكما ســيظل مثلا أعلــى لنزاهة الحكم البشــرى ثم عثمان بــن عفان وقتل والمصحف فى يــده، ثم على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وقتل على يد ابن ملجم.

واستمرت الفتنة الكبرى وبعدها بتسعة عشر عاما قتل الحسين رضي الله عنه وأرضاه في كربلاء. ودفعت الأهوال والفتن كثيرا من المسلمين إلى الفرار بدينهم والزهد في الحياة العامة.

ويتوقف أحمد بهجت عند مسئولية على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ونسبته للصوفية والتصوف. فقد كان في موت على كرم الله وجهه شيء يثير الانتباه وبسبب عشقه للحق وحبه للإسلام غالى فيه الناس ونسبوا إليه ما لم يقله وتوسعوا فيه.

ويقال إن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضي الله عنهم جميعا وأرضاهم قد مقت ما يقال عن جده وقال: «أيها الناس أحبونا حب الإسلام فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا».

وفى القرن الثالث الهجرى ظهرت الكثير من التيارات الفكرية والصحيح أن الإسلام دعوة حضارية ولم يكن الزهد تكتيكا يقصد به ضرب مجموعة من الأغنياء، بل عنصر داخلى من عناصر القيم فى هذا الدين.(٢١)

فبهجت فى هذا المقطع من كتابه الذى يشبه قصيدة شعر وضعها أحد كبار المتصوفة ينتقل فى يسر تيار الماء المتدفق الذى يشبه ماء النيل السائغ الذى يعد لذة للشاربين ليفسر ظاهرة التصوف بمنطقه الذى يحمل الكثير من قوانين الوسطية المصرية.

فلا يصطدم بأى حائل يجرم هذه الظاهرة أو يحملها فوق ما تحتمل كما أنه فى الوقت نفسه لا يريد إلا أن يكون طوافا بعالم الصوفية دون أن يعطيها صفة التقديس التى يمكن أن يمنحها البعض.

فالصوفيــة فى رأيه حالة خاصــة ولدت فى ظروف خاصة وقدر لها الاســتمرار لأن الظروف التى سمحت لها بالوجود مازالت مستمرة بل مرشحة للاستمرار فى عالمنا الإسلامى.

إلا إنه فى الوقت نفســه يوجد رأى آخر فى تفسير الصوفية للكاتب الأمريكى شمس فريدلاندر فى كتابه: «رومى والدراويش الدوارة» الذى يرى أن معنى الصوفية تعنى بالفارسية عتبة الباب وتعنى بالعربية من يلبس الصوف وتعنى باليونانية الحكمة.

كمــا أن الصوفية فى أبســط تقدير هى المفتاح لفهم أشــعار ومفاهيم شاعر الصوفية الأكبر مولانا جلال الدين الرومى.

وهــو ما يعنى أن شمــس فريدلاندر الأمريكى الأصــل والذى دخل فى الإســلام من باب حب المتصوفة ومن باب حب شعر كبير المتصوفين مولانــا جلال الدين الرومى قد التزم منطقا يعكس العقلية الغربية التى تبحث عن تفسير دقيق للمفردات.

وأمــا العالم الكبير ورائد علم الاجتماع ابــن خلدون فيعتبر أن علم التصوف من العلوم الشــرعية الحادثــة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل على ســلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين من العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة إلى أن نشــأ الإقبــال على الدنيا فى القرن الثانى الهجرى وما بعده فســمى المقبلون على الله باسم الصوفية أو المتصوفة.(٢٢).

وهكـــذا تتعدد الآراء إلا إنـــه يظل الاتفاق على أن الصوفية كانوا فى بدايـــة الأمر يرون أن توجـهـهم هذا فر'ر من الله إلى الله فى دنيا اختلفت فيهـــا المعايــير والقيم عن ذى قبــل واختلطت الأمور حتـــى إن ما أقره المجتمع الإســلامى واصطلح عليه قــد أصبح مجالا للقيل والقال فى جو سياسى غلب عليه الاضطراب والفتن.

ولهذا تكتســب الخانقــاوات مكانة خاصة فى العصور الإســلامية اللاحقة التى شــهدت العديد من الأهواء والأنواء فصحيح أن الإســلام برغــم كل الأزمات كان لايزال ناضجا غضــا نافذا فى قلوب الناس. فإن البعــض ومنهـــم هؤلاء الصوفية ذهبوا إلى شـــىء أكبر مـــن التعامل مع الأمـــور بصبر مرغم. فقد أراد هـــؤلاء أن يكون لهم مكانة مختلفة حتى فى المجتمع الذين يحيون فيه.

ومكانتهم كهاربين إلى الله كانت تستلزم منهم أن يعتكفوا بعيدا عن هذه الحياة، وأن يعتزلوا الكثير مما يشغل الناس أملا فى الحصول على شىء أكبر من متاع هذه الدنيا الفانية.

وهكذا ظهرت الخانقاه التى كانت تقوم فى الأساس بإيواء الصوفية والطلبة والغرباء المســلمين وكانت كل الصلوات تؤدى بإيوان خاص بها إلا أن صلاة الجمعة لم تكن تقام فيها.

ويســتطرد كتاب «خانقــاوات الصوفية فى مصر» فى شــرح طبيعة الحيـــاة فى هذه الخانقاوات حيث يوجد شـــيخ الخانقاه وإمامها وناظر وقفها ومدرســو المذاهــب ومعيدوهم والكحـــال والجرائحى والطبائعى

وخـــازن الكتـــب وكاتب الغيبة والشــاهد والمؤذن والمزملاتي ومشـــرف الحمام ومشــرف المطبخ وخادم الشيخ وخادم الربعات الشريفة والبواب والفراش وسواق الساقية والوقاد ونحوهم..

وإن دل هذا الكم الهائل من الوظائف على شيء فإنما يدل على حجم ما كان في هذه الخانقاوات من وظائف متنوعة كان كل واحد من أربابها يتقاضى نظير عمله بالخانقاه أجرا نقديا راعى فيه الوقف أن يتناســب مع تراثه المالي ومقامه الاجتماعي، علاوة على ما كانوا جميعا يشتركون فيه من أجــر عيني انحصر في المأكل من الخضــراوات واللحوم والأرز واللبن والعســل والحلوى ونحوها، وفي الملبس والصابون وغير ذلك من الأرزاق الوافرة التي كانت توزع عليهم.(٢٣)

وفي مصر المحروســة يذكر أن أولى الخانقاوات كانت خانقاه سعيد الســعداء التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي وأوقف لها أوقافا .وتعد هذه الخانقاه أحجية تخص في الأصل الأســتاذ عنبر أحد القائمين بالخدمة في عهد الخليفة المستنصر.

ويبــدو أن هذا الرجل قد كان له من الطموح والنفوذ ما جعله يفكر في أن يصبح شــيئا مهما في هذه الأيام، إلا إن هذا الطموح كان له قمة في الوصول إليها ثم حق عليه بعدها الهبوط.

وهــو المتوقع في مثل هذه الحكايــات المثيرة لتنتهي الحدوتة كلها بقتل صاحبنا عنبر وصلبه على باب زويلة.

فذهب عنبر وطموحه وبقيت الدار التى سكنها من بعده الوزير الصالح طلائع الذى يذكر بعض كتب التاريخ عنه - بينما تشكك أخرى - أنه أراد أن يدفن رأس الإمام الحسين ﷺ وأرضاه فى مسجد أوقفه لله تعالى، ولكن الخليفة الفاطمى رفض. فمن وجهة نظره لا تدفن الرأس الشريفة إلا فى قصر من قصور القاهرة الزاهرة وقد حدث ما أراد فدفنت فى أحد القصور الفاطمية البهيجة الذى يحتل مكانه المشهد الحسينى الآن. ثم سكن هذه الدار من بعده الوزير شاور، والذى كانت منافسته مع ضرغام أحد أسباب لضعف الداخلى فى هذا الزمن حتى إذا ما جاء زمن صلاح الدين الأيوبى بعد انقضاء عهد الفاطميين فى مصر جعل الدار وقفا للصوفية ولقب شيخها بشيخ الشيوخ.

وبوقف هذه الخانقاه على فقراء الصوفية كما يقول لنا على باشا مبارك فى «الخطط التوفيقية» بدأ زمن أخر منذ عام ٦٥٩هـ. فمن بعدها رتب للصوفية طعاما وبنى لهم حماما فى نفس المكان الذى عاش فيه كل هؤلاء الطموحون.

ولهذا توقف على باشا مبارك طويلا أمام موقع هذه المدرسة وذكر إنها توجد تجاه حارة المبيضة من الجمالية على يمنة السالك من شارع الجمالية إلى المشهد الحسينى خلف قرة قول الجمالية قرب جامع بيبرس الجاشنكير. وقد عملها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب خانقاه للصوفية سنة ٥٦٩هـ. وأن بها أربعة ألونة وعدة خلا للصوفية تحتها قبو دفن فيه بعض صوفيتها. وقد تغيرت بعض مبانيه

الأصلية وجعل بها منبرا وخطبة وهى عامرة إلى القرن ١٩، وتعرف بجامع الخانقاه وبسعيد السعداء وخطها يعرف. بخط الجمالية ثم أضاف أنه لما جدد الأمير يلبغا السالمى الجامع الأقمر، وعمل له منبرا وأقيمت فيه الجمعة ألزم صوفية هذه الخانقاه أن يصلوا الجمعة به. فلما زالت أيامه تركوا ذلك ولم يعودوا إلى الاجتماع بالجامع الحاكمى أيضا.(٢٤)

وبعدها انفتح الباب لتولد أكثر من خانقاه أمام أكثر من ساكن صوفى يتوق للعيش بها. فبنيت مجموعة من الخانقاوات فى منطقة صحراء المماليك والجمالية والسيدة زينب مثل خانقاه السلطان الأشرف برسباى، وخانقاه السلطان الناصر فرج بن برقوق فى صحراء المماليك، وخانقاه بيبرس الجاشنكير بشارع الجمالية، وخانقاه سنجر الجاولى بشارع مراسينا بحى السيدة زينب، وخانقاه وقبة شيخو بشارع الصليبة.

وقد اختصت هذه الخانقاوات بالكثير من الفنون الإسلامية الجميلة، وكيف لايكون هذا وقد شيد معظمها فى العصر المملوكى عصر البناة الكبار وفى زمن كان إنشاء أى منها يعتبر مفاجأة مملوكية للشعب - إن صح التعبير - فكان السلاطين والأمراء يقومون بوقفها وافتتاحها بأنفسهم فى احتفال مهيب.

ونعود إلى التميز المعمارى فنجدها تشتمل على الكثير من آيات التفوق ونترك مساحة الحكى للدكتور عاصم رزق الذى يشرح فى كتابه: «خانقاوات الصوفية فى مصر» كيف أظهر المعماريون تفوقهم

فى تصميـم الداخل والخارج والمحراب والأرضية والنقش والكتابة فلم يكن هناك فرق يذكر بين تخطيط المسجد والخانقاه. وقد عمد المعماريون إلى إدماج المـآذن بالواجهات على حد قولـه بالإضافة إلى تجميل المآذن بالطاقات والكسوات التى كان يستخدم فيها القيشانى.

ويتطور الأمر ويدرس المسـلمون بهذه الخانقاوات المذاهب الفقهية ويختـص كل خانقاه في زمن القرن الثامـن الهجرى بمذهب. فقد كان فقه الإمام الشافعى يدرس بالخانقاه الجاولية والفقه الحنفى بالخانقاه الجمالية. بينما درست المذاهب الأربعة فى الخانقاه الشيخونية.

ويبقى أن نسـأل هل اسـتمر الحال على مـا كان عليه فعاش هؤلاء الصوفية من غير قلق على طعام أو مسكن؟

فى الحقيقة إن هذا لم يحدث لأن كل شـيء خلقه الله تعالى لابد له من بداية ونهاية أيضا. فقد هجرت هذه الخانقاوات بعد زمن من تغير الدنيا وحلت التكايا محلها فى العصر العثمانى .وإن كانت هذه الوريثة الجديدة اختلفت فى معمارها عن سابقتها.

فقد أصبح لهذه التكايا صحن به حديقة وفسقية تحيط بها إيوانات وتنتظـم من حولها قاعات للدر ويش على أن يكون هناك مسـجد صغير وسبيل بكل تكية.

ومـع وجود هذه التكايا اختلف الأمر عمـا كان. إلا أن الخير ليس له عصر بعينه.

فهذه التكايا قبل أى شيء نجحت فى أن تواصل المهمة الخيرة كما هو الحال في تكية البكتاشية جنوب قلعة الجبل وهى منحوتة فى جبل المقطم وتكية الهنود المواجهة لمسجد أحمد كتخدا بالقرب من شارع القبانة.

ولتختفى بعد هذا بزمن التكايا أيضا وتستمر حركة الحياة برغم كل شيء وليبحث الناس على شيء آخر يوقفونه على الفقراء وليواصلوا الخير الذى بدأه الأجداد.

والحكمة في النهاية تكمن في حقيقة ألا ننسى ذكر الله. كما يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [سورة الرعد الآيات: ٢٨ : ٢٩].

فذكر الله تعالى لا يكون فقط على مأدبة طعامنا حين نفطر في الشهر المبارك، ولا يذكر فقط عند الشدة ليكون لكل منا دعاء عريض.

ولهذا فإن فرسان الخير لا يعدمون في أى زمان ومكان الوسيلة لكى يسجلوا أسماءهم فى سجل الحافظين لدينهم... ولهذا فالأفكار تتعدد وإن كان الهدف فى النهاية واحد.

□□□